



## معهد الدراسات الإسماعيلية

### الإسماعيليون ودورهم في تاريخ سورية في العصور الوسطى والشرق الأدنى

الدكتور فرهاد دفتري

البروفيسور عظيم نانجي

#### موجز

لعب الإسماعيليون سواء في العلن أو في السر دوراً هاماً في التاريخ الثقافي للإسلام، ولا سيما في سوريا ومصر، حيث أقاموا الخلافة الفاطمية، التي استمرت نحو 200 عام. بعد سقوط الفاطميين في 1171 م، وخلال الشتات اللاحق، أصبحوا مشهورين بحصونهم في إيران وسوريا، حيث تدخلوا في مختلف الصراعات بين القوى المسيحية والممالك الإسلامية في الأرض المقدسة.

ومن الناحية الدينية، فالمجتمع الإسماعيلي هو جزء من التنوع الأكبر للأمة المسلمة المنتشرة في جميع أنحاء العالم. ومع مرور الوقت، شكل المسلمون مجموعات متنوعة مثلت طرقاً متعددة لفهم الرسالة الأساسية للإسلام ومناهج مختلفة حول كيفية تأثير هذه الرسالة في الحياة العملية في المجتمع وتنظيمه. الإسماعيليون هم أحد هذه المجموعات والتي تنتمي إلى الفرع الشيوعي للإسلام، حيث يشكل السنة الفرع الرئيسي الآخر، وكانوا قد شكلوا دائماً أقلية، سواء تاريخياً أوفي العالم المعاصر. يعيش الإسماعيليون في الوقت الحاضر في أكثر من 25 بلداً، وذلك في كل منطقة تقريباً من العالم. يعود تاريخهم في بعض هذه المناطق إلى أكثر من ألف سنة. سورية هي أحد الأمثلة على ذلك حيث يمكن أن يعود تاريخ وجود الإسماعيليين إلى القرن التاسع.

بقي الإسماعيليون، من بين الشيعة، مخلصين لخط الأئمة المنحدرين من الإمام جعفر الصادق (ت 765 م) من خلال ابنه، الإمام اسماعيل، وهكذا عرفوا باسم 'الإسماعيليين'. كان هناك جماعات شيعية أخرى قدمت ولأنها لخطوط مختلفة من الأئمة. المجموعة الأكبر بين مجموعات الشيعة الأخرى تسمى الإثني عشرية؛ وهم يؤمنون بخط الأئمة الإثني عشر، والذين ينتهون بالمهدي الذي بقي في الستر (الغيبية) وسوف يعود إلى الظهور لمنح الخلاص في نهاية الزمان.

#### شبكة واسعة الانتشار مع قواعد قوة متغيرة

تسبب المناخ السياسي الصعب والمثير للانقسام في ذلك الوقت في حفاظ الأئمة الإسماعيليين الأوائل على عدم الكشف عن هويتهم، خوفاً من الإضطهاد. ووفقاً لمصادر تاريخية إسماعيلية، عاش الأئمة خلال هذه الفترة في سلمية في وسط سوريا. وقد قاد الأئمة سراً من سلمية أنشطة أتباعهم من شمال أفريقيا إلى خراسان وآسيا الوسطى. خلال هذه الفترة المبكرة، الممتدة إلى منتصف القرن التاسع، نُظمت هذه الجماعة من خلال المؤسسة المعروفة باسم الدعوة. ورغم أن المصطلح لا يقتصر على الإسماعيليين، فقد أضفى تنظيمهم الماهر وعلاقاتهم الفعالة طابعاً فريداً جداً في ذلك الوقت. كان الأفراد الذين يمثلون 'الدعوة' معروفين باتباعهم حياة أخلاقية نموذجية وامتلاكهم معرفة عميقة بالعلوم الفكرية الأعلى في ذلك الوقت. عرف هؤلاء بالدعاة، وكانوا قد جمعوا أيضاً بين المعرفة الدبلوماسية والعلاقات العامة. كان دورهم جمع الناس على قضية الإسلام والأئمة الإسماعيليين وتعزيز الرعاية الاجتماعية والأخلاقية والروحية للجماعة والمناطق التي كانوا يعيشون فيها.

خلقت الجهود المشتركة لأفراد 'الدعوة' دعماً قوياً للأئمة في شمال أفريقيا واليمن وسوريا. ومع ذلك فقد قاد الأئمة أنشطة أتباعهم من سوريا باتجاه هذه المناطق المختلفة. وحتى بعد أن بدأ الأئمة الإسماعيليون بالحكم كخلفاء فاطميين في القاهرة، تابعت سوريا بكونها منطقة مهمة لأنشطة 'دعوتهم'، والتي شكلت أيضاً أحد أبعاد الدولة الفاطمية. لقد شكل الإسماعيليون السوريون بالتالي جزءاً هاماً من الجماعة الإسماعيلية طوال تاريخها.

شهد تاريخ مصر نفسه فترة طويلة من الإزدهار خلال فترة تسلم الحكام الفاطميين السلطة من عام 969 م إلى 1171 م. أحكم الفاطميون سيطرة استراتيجية على البحر الأبيض المتوسط وطرق تجارة البحر الأحمر مع القاهرة والتي شكلت حينها مركزاً تجارياً. وخلقوا عصرًا مزدهراً للنشاط التجاري، والذي شمل سوريا. شاركت مصر تحت الحكم الفاطمي بقوة في التجارة الدولية مع بلاد مثل الهند والشرق الأقصى وشمال أفريقيا وبلاد النوبة وأوروبا وبيزنطة (القسطنطينية على وجه الخصوص) وصقلية وجزر أخرى في البحر الأبيض المتوسط. أدت الزراعة لتحقيق الإكتفاء الذاتي كما وتم تطوير الصناعة أيضاً. عاشت المجتمعات الدينية المختلفة من يهود ومسيحيين ومسلمين معاً بروح من الاحترام المتبادل وتمتعوا بالإزدهار في ظل الإستقرار النسبي في ذلك الوقت.

ومع ذلك، فقد كانت الإنجازات الفاطمية في سياق الحياة الفكرية الإنجازات الأكثر روعة وتميزاً. وكان الحكام الفاطميون رعاة كريمين للتعليم وقد نتج عن تشجيعهم السخي للبحث العلمي والنشاط الثقافي في أن تكون القاهرة، عاصمتهم المنشأة حديثاً، مركز استقطاب لعلماء بارزين في مجالات الرياضيات والطب والفلك من جميع أنحاء العالم الإسلامي. برز داخل البلاط الملكي شعراء مشهورون مثل ابن هاني وتميم بن المعز، ومؤرخون وجغرافيون مثل المصابحي والمهلبى، والذين ازدهروا تحت رعاية الفاطميين. وقدمت جامعة الأزهر ودار العلم شهادة ثابتة ودائمة لحب الفاطميين للتعليم. وكان لشخصيات ذات موهبة بارزة مثل أبو يعقوب السجستاني، والقاضي النعمان، وحמיד الدين الكرمانى، والمؤيد في الدين الشيرازي وناصر خسرو مساهمات جوهرية في صياغة الفكر الإسماعيلي، وتميزت هذه المساهمات بغزارة معقدة ومفاجئة بشكل ملحوظ للنشاط الفكري، وهو الذي شبهه م. كانارد في 'موسوعة الإسلام' بالنشاط الفكري الذي حصل في أوروبا في القرن الثامن عشر. ولم يقتصر التأثير الثقافي للدولة الفاطمية على العالم الإسلامي. ففي ذروة قوتها، وبينما سيطر الأسطول والتجارة الفاطمية على شرق البحر الأبيض المتوسط، فإن تأثير الجامعات في القاهرة انتشر إلى داخل أوروبا، مع مساهمة الكتاب الفاطميين بشكل كبير في تطور الغرب في علوم مثل البصريات والطب والفلك.

عندما زار المفكر والشاعر الفارسي ناصر خسرو القاهرة في 1047 م، دُهل بالمستوى العالي من الإزدهار والطمأنينة التي يتمتع بها مواطنوها. ويذكر في كتابه سفرنامه (كتاب الرحلات)،<sup>1</sup> "رأيت مثل هذا الرفاه الشخصي هناك"، ويقول "حتى لو كنت أنا الذي يصف ذلك، فالناس في بلاد فارس لن يصدقوا ذلك أبداً." ويتابع ليذكر أن "طمأنينة ورفاهية الناس قد وصلت لدرجة أن تجار الأقمشة والصيارفة وتجار المجوهرات لم يقوموا حتى بقفل محلاتهم- هم فقط ينزلون الشبك على طول الواجهة، ولا أحد يعيث بأي شيء".

علق الفاطميون قيمة وأهمية كبيرة على التعليم والتعلم. فقد أسسوا واحدة من أوائل الجامعات في العالم. تأسست في عام 970 م بإسم جامع الأزهر (والذي يعني 'بيت النور')، ثم تحول في وقت لاحق إلى جامعة ذات مناهج دراسية خاصة بها وقاعات للمحاضرات ومساكن للمدرسين والطلاب، وقد تم تمويله بسخاء من قبل الأئمة. أصبح الأزهر المؤسسة الفاطمية الرئيسية للتعليم العالي، والمتخصصة في العلوم الدينية المختلفة مثل الدراسات القرآنية واللاهوت والقانون.

وثمة مؤسسة أكاديمية أخرى هامة للفاطميين هي 'دار العلم'، والذي عرف أيضاً 'بدار الحكمة'. أسسها الخليفة الإمام الفاطمي الحاكم في 1005 م وكانت هذه الأكاديمية مجهزة بمكتبتها الخاصة في جزء من القصر الفاطمي. ومن المرجح أن حسن الصباح نفسه، المؤسس اللاحق للدولة الإسماعيلية في إيران، تلقى بعض تعليمه المتقدم في هذه الأكاديمية عندما زار القاهرة في عام 1078 م.

لقد اكتسب الإسماعيليون السوريون خلال فترة آل موت في التاريخ الإسماعيلي النزاري شهرة كبيرة وأصبحوا معروفين في أوروبا. أسس مجموعة من الإسماعيليين في العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر بقيادة حسن الصباح (المتوفي عام 1124 م) دولة في إيران. وقاموا بإعلان الولاء للإمام نزار، الإبن الأكبر والمعين كإمام من قبل آخر خليفة فاطمي فعلي الإمام المستنصر بالله، الذي توفي في عام 1094 م. كجزء من سياسة توطيد العلاقات مع الإسماعيليين الآخرين، أرسل حسن الصباح مبعوثين إلى سوريا للمساعدة في تنظيم الجماعة. كانت سورية مقسمة سياسياً. وكانت أول فرق التركمان قد دخلت سوريا باكراً في 1055 م، وتم غزو البلاد في وقت لاحق من قبل جيوش السلجقة. بحلول عام 1078 م، كانت كل سوريا، باستثناء الشريط الساحلي الذي احتفظ به

الفاطميون، تحت حكم السلاجقة أو سلطانهم؛ تنش، شقيق السلطان السلجوقي العظيم ملك شاه، الذي أتى ليتم الاعتراف به كحاكم سلجوقي مطلق لسورية. كما هو الحال في بلاد فارس، فقد تسبب حكم السلاجقة في سورية بالعديد من المشاكل واستياء من قبل السوريين الذين كانوا مقسمين فيما بينهم وغير قادرين على طرد الغزاة. في ذلك الوقت، تسببت معارك الفصائل بين السلاجقة بإضطراب واسع النطاق وتم تقسيم سوريا إلى عدد من الدول الصغيرة. وأصبحت مسرحاً للتنافس بين الأمراء السلاجقة المختلفين والأمّار، كل واحد يطالب بجزء من البلاد، في الوقت الذي كانت العديد من السلالات المحلية الحاكمة الصغيرة تحاول أن تؤكد استقلالها.

أصبح التقسيم السياسي لسوريا أكثر بروزاً عند ظهور الصليبيين في 1097 م. تقدم الصليبيون بسرعة بدءاً من أنطاكية، على طول الساحل السوري واستقروا في المقاطعات التي استولوا عليها، مؤسسين أربع إمارات لاتينية أقيمت في الرها وأنطاكية وطرابلس والقدس. وزاد الزحف الفرنجي إلى سوريا بطبيعة الحال من مخاوف السكان المحليين، معقداً النزاعات السلجوقية. في هذه الأوقات العصيبة، كان أهم حكام السلاجقة في سورية هم أولاد تنش رضوان (1095 م - 1113 م) ودقاق (1095 م - 1104 م)، الذين حكموا على التوالي في حلب ودمشق.

ولذلك كان على الإسماعيليين وضع استراتيجية من أجل البقاء والاستمرارية في هذه المناطق المضطربة. والحل الواضح لهذه المشكلة كان في إنشاء مراكز محصنة جيداً حيث يمكن للجماعة أن تجد الحماية والحرية في تنظيم وممارسة شعائرها الدينية. وبمرور الوقت، نجحوا في الحصول على عدد من الحصون في المنطقة الجبلية المعروفة آنذاك باسم جبال البهرة، والمعروفة اليوم بجبل الأنصارية، تبعاً للسكان النصيريين فيه.

### الإسماعيليون في سورية في العصور الوسطى

عرف أول زعيم نزارى في سورية، كما أشار إليه المؤرخ الدمشقي ابن القليسي ومصادر لاحقة، باسم الحكيم المنجم. ظهر في مدينة حلب في بداية القرن الثاني عشر ميلادي ربما برفقة عدد من المؤيدين من الموت، واستطاع الحصول على حماية رضوان، الحاكم السلجوقي للمدينة. وقد أثبتت مدينة حلب، في شمال سوريا، بأنها بيئة مضيافة. وكان فيها عدد هام من السكان الشيعة وكان لها علاقة مهمة مع الإسماعيليين. وتمكنوا بالتالي، تحت حماية الحاكم، من تثبيت أنفسهم في حلب حيث أقاموا روابط مع الجماعات الإسماعيلية الأخرى.

وفي الوقت المناسب لاحقاً، حاول الإسماعيليون توسيع نفوذهم، وذلك بدعم من حاكم حلب، إلى المناطق المجاورة وسرعان ما اصطدموا مع الغزاة الصليبيين الذين كان لهم مخططات خاصة للحصول على حصون معينة في المنطقة. قُتل في الصراع الذي أعقب ذلك العديد من القادة الإسماعيليين وآخرون. وربما كانت هذه أول مواجهة بين النزاريين والصليبيين في سوريا. وفي عام 1110م، خسر الإسماعيليون أيضاً كفرلاًذا أمام الصليبيين، وهي منطقة صغيرة في جبل السماق، والتي كانوا قد أحكموا سيطرتهم عليها في وقت سابق.

بعد وفاة رضوان في 1113 م، بدأت حظوظ الإسماعيليين تتقلب في حلب، منذ أن تبنى ابن رضوان الصغير وخليفته ألب أرسلان موقفاً أكثر عدائية تجاههم. قتل العديد من الإسماعيليين في الصراعات التي تلت ذلك. وقد ذبح أوسجن نحو مئتي إسماعيلي في حلب وصودرت ممتلكاتهم أيضاً. ومع ذلك، تمكن العديد من الفرار إلى مناطق مختلفة، ووجد البعض ملجأ في إقليم الفرنجة. وعلى الرغم من أنهم لم ينجحوا في الإبقاء على قاعدة في هذه المنطقة، إلا أنهم قد نجحوا بإجراء اتصالات إيجابية كثيرة مع السكان المحليين الذي كانوا عادة داعمين ومتعاطفين مع وجود الإسماعيليين.

ركز الإسماعيليون السوريون أنشطتهم في جنوب سوريا خلال الفترة الثانية من الجهود الأولية لتأسيس أنفسهم. في عام 1124م ألقى الحاكم الجديد لمدينة حلب القبض على الزعيم المحلي للإسماعيليين وأمر بطرد الإسماعيليين، الذين قاموا ببيع ممتلكاتهم ومغادرة المدينة. وتحول مركز الأنشطة الإسماعيلية الآن إلى دمشق ومناطق أخرى مجاورة. وهناك دعم الإسماعيليون الجماعات المحلية ضد تهديدات الصليبيين منضمين إليهم في الدفاع عن المراكز الرئيسية. واستقبل 'الأتابك' (الحاكم) التركي لدمشق القائد الإسماعيلي بهرام بإحترام وقدم له الحماية الرسمية، مواسلاً تعزيز موقف الجماعة هناك. وفي الوقت نفسه، وجد بهرام في وزير الحاكم أبو علي طاهر بن سعد المزدقاني حليفاً ذو سلطة وموثوقية. وطلب بهرام أن تعطى الجماعات قلعة تدافع بها عن نفسها،

وفي عام 1126 م، تنازل الحاكم طغتكين عن قلعة بانياس، على الحدود مع المملكة اللاتينية في القدس والتي كانت تحت تهديد الجيش الصليبي. استمر دعم المزدقاني لبهرام حيث أعطي بناء في دمشق فاستخدمه كمركز قيادة محلي. وبعد ذلك، حصّن بهرام بانياس أكثر عن طريق تطوير المنشآت السكنية لنفسه وللإسماعيليين الآخرين.

في عام 1129 م، حرض حاكم دمشق الناس ضد الإسماعيليين وأعقب ذلك مجزرة. ودمرت الميليشيا التابعة له منازل الإسماعيليين وتحصيناتهم، واضطر أولئك الذين نجوا من الهجوم أن يهربوا. تم تسليم القلعة في بانياس إلى الفرنجة الذين كانوا يتقدمون في وقت واحد إلى دمشق. وهكذا انتهت الفترة المضطربة في محاولات الإسماعيليين في سوريا لإيجاد قاعدة لأنفسهم في منطقة منقسمة جداً تعاني من الصراعات الداخلية والتهديدات الخارجية.

ركز الإسماعيليون الذين بقوا على قيد الحياة جهودهم في الحصول على شبكة من المعازل الآمنة. وجه الإسماعيليون انتباههم إلى جبال البهرة، وهي منطقة جبلية بين حماه والساحل الجنوبي الغربي من جبل السماق، والذي كان يسكنه النصيريون وامتلكوا عدداً من القلاع المناسبة. لا يعرف سوى القليل عن النزاريين السوريين ودعاتهم خلال هذه الفترة، عندما نقلوا أنشطتهم إلى خارج المدن، ولكن يبدو أنهم كانوا قادرين على استعادة عافيتهم بسرعة بعد نكستهم في دمشق.

ثبت الإسماعيليون أنفسهم بعد إعادة تنظيمهم تحت قيادة أبو الفتح في جبال البهرة، حيث فشل الصليبيون في الحصول على معازل دائمة. وفي عام 1132-1133 م، نجح النزاريون في امتلاك أول حصن لهم في جبال البهرة من خلال شراء القدموس من الحاكم العسكري المحلي لقلعة الكهف سيف الملك بن عمرو والذي قام بمساعدة النصيريين، بإسترداد المكان من الفرنجة في السنة السابقة. وسع الإسماعيليون السوريون وجودهم في منطقة القدموس والتي أصبحت أحد مراكزهم الرئيسية وغالباً ما استخدمت كمقر لزعيمهم. بعد ذلك بوقت قصير، قاموا بامتلاك قلعة الكهف وكانوا أيضاً قادرين على طرد المحتلين الفرنجة من حصن الخريبة.

وفي عام 1140-1141 م، تمكن الإسماعيليون من السيطرة على مصياف، معقلهم الأكثر أهمية في سورية. تقع مصياف على بعد حوالي أربعين كيلومتراً إلى الغرب من مدينة حماه، وأصبحت في وقت لاحق مركزاً للقيادة الإسماعيلية في سورية. أحكم الإسماعيليون السيطرة أيضاً على عدة قلاع أخرى في جبال البهرة، بما في ذلك الخوابي والرصافة والمينة والعليقة، والتي أطلق عليها جميعاً اسم قلاع الدعوة أو حصون 'الدعوة'. يذكر المؤرخ الصليبي الشهير وليام أوف تاير، في كتاباته بعد عدة عقود لاحقة، أن عدد هذه القلاع كان عشر قلاع وأن عدد السكان الإسماعيليين في المنطقة كان 60,000 نسمة.

### القلاع الإسماعيلية في سورية وإيران

وبالفعل وفي أقل من عشرين سنة من بعد خيبتهم في دمشق، نجح الإسماعيليون في تأسيس شبكة من القلاع الجبلية وفي تقوية مركزهم بالرغم من عداء الحكام المحليين وتهديدات الصليبيين، والذين كانوا ينشطون في المناطق المحاذية التابعة للولايات اللاتينية لأنطاكية وطرابلس. ومع ذلك فقد ظلوا، كما هو الحال في إيران، سلطة محلية يسيطرون على أقاليم محددة ويتمتعون بمزايا استقلالية لبعض الوقت.

كانت الحياة داخل القلعة بسيطة وغير مريحة حتى في أفضل الأوقات. ففي فصل الشتاء كانت الحرارة شديدة البرودة دائماً مع رياح متجمدة تهب من القمم الثلجية المحيطة بالوادي. وبالرغم من الارتفاع، فقد كانت أشهر الصيف حارة ومغبرة، وتتطلب الحذر الكامل من القوى المهاجمة. كانت القلعة نفسها مركزاً للنشاط المستمر في كل الفصول. وكان لا بد من الحفاظ على خزانات وأقنية المياه نظيفة، كان صناع الأسلحة مشغولين بصنع أسلحة جديدة، والنجارون والبنائون مشغولين ببناء أو صيانة المنجنيقات، أو ترميم وتوسيع الدفاعات. وكان الطهاة مشغولين في المطبخ، يملؤون مخازن الطعام ويحافظون عليها مرتبة بشكل جيد. وكانت الدراسة والتعلم والنقاش تشغل معظم نهار عند العديد منهم، وخصوصاً أولئك الذين يطمحون لأن يصبحوا 'دعاة'.

تستند معلوماتنا عن الحياة في القلاع في سورية وإيران على معطيات تاريخية وشواهد أثرية. من المحتمل أنهم استخدموا نفس النموذج تقريباً في جميع القلاع الإسماعيلية الكبيرة، مثل الميمونديز وجيردكه والقين في إيران ومصيف والقلاع السورية الأخرى أيضاً. كان الوقت يمضي في أعمال الدفاع والصيانة العامة. تستند الكثير من الأساطير التي تحيط بالقلاع والإسماعيليين إلى حد كبير على المعلومات الغير الموثوقة للغاية لرحالة البندقية ماركو بولو، والتي أصبحت مقبولة لدى العديدين كحقيقة حتى تم نفيها عن طريق الدراسات الحديثة.

يروى ماركو بولو أثناء رحلته إلى بلاط الحاكم المغولي قوبلاي خان في السنوات 1271-1290م أنه ولدى عبوره عبر شمال شرق إيران، سمع من السكان المحليين عن 'رجل الجبل العجوز' وفرقته المتعصبين من المصلين الذين عاشوا في واد بعيد مخبأ في الجبال. وقيل أن 'الرجل العجوز' قد بنى حديقة في داخلها كان هناك قصر حيث تم اغراء الشباب بواسطة المخدرات والخمر للإعتقاد بأنهم كانوا في الجنة كمكافأة لأعمالهم في القتل.

كان الطبيعة الخيالية لشهادة ورواية ماركو بولو محط شك المفكرين لفترة طويلة، ولقد تم تنفيذ إدعائاته السخيفة في الآونة الأخيرة في تقارير علمية مختلفة. لم يستعمل قط اسم 'رجل الجبل العجوز' في المصادر الفارسية للحسن الصباح، في أن هذا الوصف كان قد ورد حول سنان راشد الدين في سوريا. كما أنه لمن الواضح أن الأسطورة التي تواتر ذكرها عن تخدير الفدائيين الإسماعيليين وتلقيهم تذوقاً للجنة قبل أن يتم إرسالهم في مهمتهم هي سخيفة بقدر ما هي خيالية. فليس هنالك أي دليل إسلامي معاصر على حصول ذلك.

كما ونعلم أيضاً أنه عندما تفقد المؤرخ الجويني الموت بعد استسلامها للمغول في 1256 م، كم أعجب بمكتبتها وبخزانات المياه ومرافق التخزين، لكنه لم يذكر أي شيء عن حديقة سرية بهيجة أو قصر فخم داخل أو خارج القلعة. ومن المؤسف أن الجويني نفسه، بعد أن درس الوثائق الإسماعيلية الأصلية وبعد أن وجدها مليئة "بالبدعة والخطأ" ألقى بها في النار. وبالتالي فإن تشويه التاريخ الإسماعيلي كان على أساس من الإختراع والتلفيق المحض.

تولى قيادة الإسماعيليين في سوريا في هذه المرحلة زعيمهم الأكثر شهرة سنان راشد الدين، وهو أحد الشخصيات البارزة في التاريخ الإسماعيلي. إنه سنان بن سلمان (أوسليمان) بن محمد أبو الحسن البصري، المعروف أيضاً بإسم راشد الدين، ولد لدى عائلة شيعية في عقر السودان، وهي قرية بالقرب من البصرة على الطريق إلى واسط. وقد تربي سنان في البصرة، حيث أصبح معلماً واعتنق الإسماعيلية. ذهب لاحقاً إلى الموت ودرس على يد الإمام المستقبلي، حسن الثاني. درس سنان خلال إقامته في الموت الفلسفة وخاصة الأعمال المشهورة في الفترات الفاطمية والنزارية وكذلك استفاد من المكتبة وغيرها من الموارد الفكرية في الموت. بعد وقت قصير من تولي الإمام حسن الثاني مقاليد الحكم في 1162 م، قام بإرسال سنان إلى سوريا. في البداية، بقي سنان في الكهف، وهي واحدة من القلاع النزارية الرئيسية في جبال البهرة، حيث أوجد لنفسه شعبية كبيرة بين النزاريين المحليين، حتى لقي الشيخ أبو محمد، رئيس 'الدعوة' النزارية السورية حتفه في الجبال. بعد ذلك بوقت قصير، تولى سنان قيادة 'الدعوة' السورية بناءً على تعليمات من الإمام.

دأب سنان عند استلامه على تعزيز وضع جماعته وفي الوقت نفسه بدأ ببناء العلاقات مع الحكام المجاورين وكذلك مع الصليبيين الذين شكلوا بسبب وجودهم خطراً عاماً على الجميع. أعاد سنان بناء الحصون في الرصافة والخوابي وحصّن وشيّد قلاعاً أخرى وسيطر على قلعة العليقة التي تقع بالقرب من قلعة المرقب التي سيطر عليها الفرنجية من فرسان يوحنا (الإسبتارية). وفي الوقت نفسه أعاد سنان بسرعة تنظيم المجتمع النزاری بينما كان يتحرك بين القلاع النزارية المختلفة، وخاصة مصيف والكهف والقدموس.

خارجياً، سعى سنان إلى حماية الإسماعيليين من التهديدات المحتملة والمختلفة كما سعى إلى تحقيق التوازن بين مختلف المصالح في المنطقة. مثل الأيوبيين تحت قيادة صلاح الدين بكل وضوح تهديداً أقوى من الصليبيين في هذا الوقت. واعترافاً بالحقائق الموجودة، اعتمد سنان سياسات ملائمة في تعامله مع العالم الخارجي، هذه السياسات التي تم تعديلها عند الحاجة لضمان سلامة واستقلال جماعته. ونتيجة لذلك، وفي وقت مبكر، أقام سنان علاقات سلمية مع الصليبيين، الذين كانوا يقاتلون النزاريين بشكل متقطع ولعدة عقود من أجل حيازة قلاع مختلفة.

وفي الوقت نفسه، ظهر للنزاريين عدو جديد من الفرنجة الإسماعيلية، الذين تلقوا في 1142 م من حاكم طرابلس قلعة الحصن الشهيرة (حصن الأكراد) في الطرف الجنوبي من جبال البهرة. واصل النزاريون الإشتباكات الطفيفة مع الإسماعيليين وتنظيم فرسان الهيكل، والذين يدينون بالولاء للبابا بشكل مباشر وغالباً ما كانوا يتصرفون بشكل مستقل. لاحقاً، وحوالي عام 1173 م، أرسل سنان بعثة إلى الملك أمالريك الأول تسعى إلى إقامة علاقات ودية رسمية مع المملكة في القدس. وكانت المفاوضات تسير بنجاح واضح. لكن فرسان الهيكل استنكروا هذه البعثة النزارية، وفي رحلتهم للعودة تعرض مبعوثو سنان لكمين وتم قتلهم على يد أحد فرسان الهيكل. اتخذ أمالريك إجراءات تأديبية ضد فرسان الهيكل ولكنه هو نفسه توفي بعد ذلك بوقت قصير في عام 1174 م واتضح أن المفاوضات بين سنان المعروف لدى الصليبيين باسم 'رجل الجبل العجوز' والفرنجة في القدس كانت غير مثمرة.

عندما تسلم سنان أمور القيادة، كان نور الدين، الحاكم الزنكي في سوريا، مشغولاً بخطته ضد الصليبيين وبآخِر الخلفاء الفاطميين حينها والذي كان معترفاً بهم كإمام من قبل الإسماعيليين المستعيلين فقط. بالرغم من ذلك، ظلت العلاقات بين سنان ونور الدين متوترة نسبياً بسبب نشاطات الإسماعيليين في شمال سوريا. لكن نور الدين، الذي نجح في النهاية من خلال صلاح الدين في هزيمة الفاطميين في 1171 م، لم يهاجم الإسماعيليين، على الرغم من أنه قيل أنه كان يخطط لحملة كبيرة ضدهم قبل وفاته بفترة قصيرة. أعطت وفاة نور الدين في عام 1174 م، وهو العام نفسه الذي توفي فيه أمالريك الأول، أخيراً الفرصة لصلاح الدين ليكون بمثابة بطل المسلمين وقائد الحرب المقدسة ضد الصليبيين. سعى صلاح الدين بوصفه أقوى الحكام المسلمين في المنطقة من أجل ضم مصر وسوريا والعراق إلى إمبراطوريته الأيوبية الناشئة. ونتيجة لذلك، استهدف الإسماعيليين في سوريا، فضلاً عن حكام حلب والمواصل. دخل صلاح الدين دمشق في 1174 م، وفي العام التالي قام بغزو مناطق الإسماعيليين محاصراً مصياف. كان الحصار وجيزاً إذ أن هدنة لاحقة كانت قد أبرمت بين صلاح الدين وسنان بوساطة حاكم محلي قام على إثرها صلاح الدين بسحب قواته من المنطقة، ومنذ ذلك الوقت، توقفت الأعمال العدائية بين الرجلين، الذين كانا قد توصلا إلى اتفاق على التعايش السلمي.

توفي سنان راشد الدين في عام 1193 م في قلعة الكهف. قاد سنان النزاريين السوريين في غضون الثلاثين عاماً إلى موقع السلطة والنفوذ. وكان الأقدَر بين شيوخ الجبل إذ أعطى للنزاريين السوريين هوية مستقلة؛ ومجال نفوذ خاص بهم، وشبكة من المعاقل وقيادة منظمة قوية. ساهمت استراتيجياته القوية وتحالفاته المناسبة مع الزنكيين والصليبيين وصلاح الدين في ضمان استقلال إسماعيلي سوريا في الأوقات الصعبة.

تشير النقوش في مصياف والكهف ومعاقل أخرى وعدد من المصادر الأدبية السورية إلى الإستمرارية بعد وفاة سنان. تمت قيادة الإسماعيليين من قبل عدة أفراد بارعين بالتشاور مع الأئمة في الموت حتى عام 1258 م. وكما المجتمع النزاری في قاهستان، وفي بلاد فارس الشرقية، واصل النزاريون السوريون خلال هذه الفترة ممارسة درجة معينة من المبادرة المحلية في التعامل مع جيرانهم المسلمين الفرنجة. حافظ الإسماعيليون السوريون، عموماً، على علاقات سلمية مع خلفاء صلاح الدين الأيوبي في سوريا. ولكن النزاع العرضي استمر في تعاملهم مع الفرنجة، الذين كانوا لا يزالون يسيطرون على الساحل السوري.

كان هنالك أكثر من 60 قلعة وحصن في وادي الموت وفي رديبار، وحوالي 80 في خراسان، ونحو 50 في أجزاء أخرى من إيران. امتلك الإسماعيليون في سوريا 60 قلعة من مختلف الأحجام في جبال بهرة بين حلب ودمشق. وبالتالي فقد كان في إيران وسوريا حوالي 250 حصناً، مما يدل على امتداد وتنظيم الإسماعيليين. كانت جميع الحصون الرئيسية متقنة الصنع ومزودة بخزانات للمياه تغذيها الينابيع أو مياه الأمطار ومزودة بكميات احتياطية مخزنة في غرف ضخمة تحت الأرض. وكانت مكتباتها أيضاً قد نالت الشهرة والحسد.

يقول بيتر ويلي، "لا يوجد أدنى شك" "حول كفاءة الإدارة الإسماعيلية. وينعكس هذا بشكل مثير في معظم المهام اللوجستية الهائلة التي ينطوي عليها بناء وصيانة أكثر من 200 من القلاع المنتشرة عبر مسافات شاسعة. يتطلب بناء القلاع الجديدة، أولاً وقبل كل شيء، عمل مسح مفصل وتخطيط على مستوى عالي. يجب أن يكون تنفيذ هذا المشروع من قبل مجموعة من المشرفين يحملون مسؤولية استخراج الحجارة المطلوبة، ونقلها إلى موقع القلعة.

ويكون تحت إمرتهم فرق من عمال البناء والبنائين ومهندسي المياه، والجصاصين وغيرهم من العمال المهرة الآخرين. تتطلب الكميات الضخمة من الحجارة اللازمة للحفاظ على القلاع والحميات في حالة جيدة لعدة شهور وحتى سنوات، ما نسميه اليوم التمويل العام وموظفيه من أعلى المستويات. أخيراً، لن يكون من الممكن مواصلة بناء وتعزيز هذه القلاع من دون قوة عمل كبيرة ودائمة، والانتقال من موقع إلى آخر حسب الحاجة. ليس لدينا معلومات عن أصل هؤلاء العمال، على الرغم من أنه من المؤكد أن قسماً كبيراً منهم كانوا من الإسماعيليين تم تجنيدهم وتدريبهم محلياً." (2)

### **بين غزوات الصليبيين والمغول**

تمت الإشارة في المقطع السابق، إلى العلاقات بين سنان والممالك الصليبية في الأراضي المقدسة. ومن الضروري أن نذكر هنا العلاقات التاريخية الأخرى. أرسل فريدريك الثاني (1212-1250 م)، إمبراطور ألمانيا الذي ذهب إلى الأراضي المقدسة على رأس الحملة الصليبية في عام 1227 م، مبعوثين إلى مجد الدين، زعيم الإسماعيلية في سورية. ومع ذلك، في نفس الوقت، طالب فرسان الإسماعيلية الذين كانوا مستائين للغاية من التعامل بين الإسماعيليين وفريدريك الثاني، الإسماعيليين بالجزية. رفض الإسماعيليون، معلنين حقيقة أنهم هم أنفسهم كانوا يتلقون الهدايا والمدفوعات من أباطرة وملوك الفرنجة.

يتعلق الحدث الهام الأخير في تاريخ الطائفة الإسماعيلية لهذه الفترة في القرون الوسطى بالتعامل بينها وبين لويس التاسع، المعروف باسم سانت لويس، ملك فرنسا الذي قاد الحملة الصليبية السابعة. حدثت هذه التعاملات، والتي سجلت من قبل جان دي جوفيل، سكرتير وكاتب سيرة الملك، بعد وقت قصير من وصول سانت لويس إلى عكا في أيار عام 1250 م. في ذلك الوقت، كانت الجماعة الإسماعيلية على الأرجح لا تزال تحت قيادة تاج الدين أبو الفتوح، الذي يذكر اسمه في نقش في مصيف بتاريخ شباط-آذار 1249 م. على أية حال، جاء مبعوثون إسماعيليون إلى الملك الفرنسي وطلبوا منه إما أن يدفع الجزية أو على الأقل أن يخلصهم من الجزية التي يدفعونها أنفسهم إلى فرسان المعبد وفرسان الإسماعيلية. وبسبب اعتراض رينالد فيتشرز و ويليام شاتونوف، القادة الكبار للمعبد والمستشفى، لم تؤدي المفاوضات بين الإسماعيليين وسانت لويس إلى أية نتائج. لم يدفع سانت لويس، الأكثر اهتماماً في إقامة علاقات ودية مع المغول، أية جزية لهم. ولكن تبادل الملك الفرنسي والقيادة الإسماعيلية في سورية الهدايا. وفي سياق هذا التبادل التقى الراهب الناطق بالعربية إيف لو بروتون مع العلماء وناقشوا المذاهب الدينية الإسماعيلية في مصيف.

لقد ثبتت هجمات المغول على العالم الإسلامي عزيمة الجماعة السورية وخاصة الهجمات على الدولة الإسماعيلية في إيران، والتي لم تعد تستطيع الاعتماد على دعم وقيادة الموت والتوجيه الشخصي للإمام النزاری بعد تدمير الموت عام 1256 م. التجأ الإسماعيليون السوريون في نهاية المطاف نتيجة لضعفهم إلى الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (1260-1277 م)، السلطان المملوكي البهري في مصر، والذي سرعان ما وسع سيطرته على سوريا والإمارات المختلفة.

وفي الوقت نفسه، بعد أن دمر الفاتح المغولي هولاكو، الدولة الإسماعيلية في إيران، اتجه نحو هدفه الرئيسي الثاني، وهو القضاء على الخلافة العباسية. وفي شباط 1258 م، استولى المغول على بغداد ودمروا العاصمة القديمة للعباسيين لمدة أسبوع كامل. وقد حكم على الخليفة المستعصم، الذي حاول عبثاً منع كارثة المغول، بالإعدام بناءً على أوامر من هولاكو. وجهت حملة هولاكو الثالثة ضد الدول الأيوبية في سوريا. وفي عام 1260 م، استولى المغول على حلب، وسرعان ما استسلمت حماة ودمشق. في آذار 1260 م، نجح كيت-بوغا، الذي كان مسؤولاً عن العمليات المتقدمة للمغول في سوريا، في دخوله الانتصاري إلى دمشق. وخلال العام نفسه، 1260 م، استلم المغول أربعة من القلاع النزارية، بما في ذلك مصيف، من قبل حكامها. ومع ذلك، لم يدم نجاح المغول في سورية طويلاً. حيث عاد هولاكو إلى إيران في الصيف عند سماع خبر وفاة مونكو خان العظيم، والذي كان في الحقيقة قد حدث قبل سنة في عام 1259 م، وترك كيت-بوغا لقيادة قواته المتبقية في سوريا. وفي عام 1260 م، عانى المغول من هزيمة جذرية في عين جالوت، في فلسطين على أيدي جيوش المماليك في مصر، بقيادة السلطان المظفر قطز (1259-1260 م).

وقد قاد بيبرس طليعة القوات المملوكية، خلفاً لقطز على سلطنة المماليك وأحبط محاولات المغول اللاحقة لإثبات وجودهم في المنطقة. وطُرد المغول بعد ذلك من كل سوريا، حيث برز بيبرس بسرعة بإعتباره القوة المهيمنة. واجه الإسماعيليون في هذه المرحلة التحدي المتمثل في تطوير العلاقات مع الحكام المماليك وغيرهم من الحكام المسلمين الذين انضموا في طرد المغول من سوريا. كما أنهم استعادوا أيضاً الحصون الأربعة التي كانوا قد فقدوها في وقت سابق.

### الخاتمة: المجتمع الإسماعيلي تحت حكم المماليك

حاول الإسماعيليون توطيد علاقاتهم مع بيبرس بإرسال الوفود والهدايا. ورد بيبرس، الذي كان مشغولاً مع المغول والفرنجة، من خلال تقديم خدمات محددة للجماعة. ومع ذلك، أدت منهجية التدابير التي اعتمدها بيبرس في النهاية إلى فقدان استقلالية الجماعة الإسماعيلية. لقد منحت حقوق الأراضي الإسماعيلية للملك المنصور (1244-1285 م)، الأمير الأيوبي في حماة. ومع ذلك احتفظ الإسماعيليون بملكية ثمانية معقل دائمة وهي مصياف، القدموس، والكهف، والخوابي، والرصافة، والمينقة والعليقة والقلعة.

زاد بيبرس من إجراءاته تجاه الإسماعيليين حيث اضطر الإسماعيليون على الإلتزام بدفع الجزية لهم، والتأكد من اعترافهم بسيادة الدولة المملوكية. وفي حوالي عام 1270 م، طالب بيبرس بحيازة مصياف، والتي كان من المقرر أن يعهد بها لأحد أمراءه، عز الدين الأديمي. تولى صارم الدين مسؤولية القلاع النزارية بوصفه نائباً لبيبرس. لكن صارم الدين، أيضاً، أغضب السلطان عن طريق الخداع من خلال محاولة للإستيلاء على مصياف، في انتهاك لتعليمات السلطان. قام صارم الدين بتنفيذ حكم الإعدام في عدد كبير من سكان مصياف، الذين كان قد التزموا بأوامر السلطان، ورفضوا تسليم القلعة له. بناء على طلب بيبرس، طُرد حاكم مدينة حماة، الملك المنصور، صارم الدين المتمرد من مصياف وأرسله كسجين إلى القاهرة، حيث توفي هناك في وقت لاحق.

وفي شباط عام 1271 م، قرر بيبرس التعامل بحزم أكثر مع الإسماعيليين. حيث أُلقي القبض على زعمائهم وأجبروا على التخلي عن السيطرة على الحصون لصالح المماليك. بدأت القلاع الإسماعيلية في هذه المرحلة بالإستسلام بتعاقب سريع لبيبرس الذي استخدم حصار الجيش والتهديدات والمفاوضات في التعامل مع الإسماعيليين. استسلمت العليقة والرصافة في أيار 1271 م، وبحلول أيار 1273، كانت الخوابي، والقلعة والمينقة والقدموس قد استسلمت أيضاً. حشد سكان الكهف بعض المقاومة، لكن مع سقوط هذه القلعة في تموز 1273 م، كان قد سقط آخر موقع نزاری مستقل في سوريا في أيدي المماليك، وبعد أقل من ثلاث سنوات استسلم آخر معقل في إيران، غيردكه، للمغول.

وسُمح للإسماعيليين في البقاء في حصونهم في جبال البهرة، ولكن فقط تحت إشراف صارم من مراقبين مماليك. من بين مصادر القرون الوسطى في وقت لاحق التي تتحدث عن النزاريين السوريين، توجد قصة مفصلة ذات صلة بالرحالة البربري المشهور ابن بطوطة، الذي زار سوريا للمرة الأولى في أسفاره في عام 1326 م. لقد ذكر أسماء المينقة والعليقة والقدموس، والكهف ومصياف والحصون التي كانت لا تزال في أيدي الإسماعيليين، ومن ثم يتابع في إعطاء تفاصيل مهمة عن الترتيبات القائمة بينهم وبين السلطان المملوكي الناصر ناصر الدين محمد، الذي حكم بشكل متقطع بين 1294 م و1340 م. وهكذا عاش الإسماعيليون السوريون في ذلك الوقت كرعايا مخلصين للمماليك ومن بعدهم، ممثلي الدولة العثمانية في سوريا.

في خضم تقلبات النفوذ والقوى السياسية، سعى الإسماعيليون في سورية كما في غيرها، إلى المحافظة، بقدر ما أمكن، على عيش حياة فكرية وثقافية نشيطة وحيوية. كما يشير الراحل مارشال هودجسون: "لم يكن المجتمع الإسماعيلي كمجتمع جبال نموذجي أو كمجتمع بلدة صغيرة (...). كل جماعة حافظت على توجهات مبادرتها الخاصة في إطار القضية الأوسع، وربما لم يرغب الإتجاه نحو إستراتيجية أكبر غياباً تاماً (...). ولكن الأكثر تميزاً هو المستوى المرتفع للحياة الفكرية. كان الإسماعيليون الأوائل البارزين معروفين كعلماء، وغالباً فلكيين، واستمر بعض الإسماعيليين على الأقل في وقت لاحق في هذا التقليد. في الموت، وفي قاهستان، وفي سوريا، وفي المراكز الرئيسية على الأقل، حيث وجدت المكتبات (...). والتي كانت معروفة جيداً بين علماء السنة. وحتى



النهاية حقق الإسماعيليون تفسيرات هامة للمذاهب الخاصة بهم، وكانوا أيضاً مهتمين في كل نوع من المعارف التي يمكن أن يقدمها العصر.<sup>3</sup>

#### ملاحظات:

1. ناصر خسرو، 'سفرنامه' ["كتاب الأسفار"]، ن. و. بر، طهران 1972
2. ب. ويلي، 'عش العقاب: القلاع الإسماعيلية في إيران وسورية'، لندن 2005
3. م. ج. س. هودجسون، 'تنظيم الحشاشين'، لاهاي 1955

#### مراجع مختارة

لمزيد من المعلومات عن المراجع، يرجى الإطلاع على النسخة الإنكليزية.